التباسات في مقاربة «المشروع الثقافيّ الفلسطينيّ»: فلسطين القضيّة، والفلسطينيّ الإنسان

مصطفى الولي

تختلف الثقافة من مجتمع إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى ضمن المجتمع الواحد. إنها ليست مجموعة مكوّنات ثابتة، تصلح لكلّ زمان ومكان، بل هي متطوّرة متغيّرة.

أما في حالة «الثقافة الفلسطينيّة» أو «المشروع الثقافيّ الفلسطينيّ» تحديدًا، فإننا نقف حيال أسئلة ملتبسة جرّاء الواقع الموضوعيّ للشعب الفلسطينيّ سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وديمغرافيّاً، وجرّاء غياب الحدود الدقيقة بين الإبداعات الفنيّة والأدبيّة من جهة، والإنتاجات الفكريّة والنظريّة من جهة ثانية. فهذه الأخيرة، خلافًا للأولى إلى حدٍّ ما، تنطلق من مخطّطٍ واعٍ لتشكيل وعي لواقع الشعب أو المجتمع من أجل أخذ مكانته في التاريخ العالميّ عبر مواكبة الحضارات والثقافات الكونيّة.

تتمشكل المسألة عندما يتعلّق الأمرُ بثقافةٍ «فلسطينية» في خضمّ تطوّرات القضيّة الفلسطينيّة، أيْ في حقل السياسة الخاصّة بالصراع مع المشروع الصهيونيّ: فقد أصبح لدينا مصطلحُ «المشروع الوطنيّ»، ومنه استُوْلِد «المشروعُ الثقافيّ.» وفي رأيي أنّ وضع الحدود بين «المشروع الثقافيّ» لحلّ القضيّة الفلسطينيّة، وبين «الثقافة الفلسطينيّة» كتعبيرٍ عن الإنسان في فلسطين وجودًا وتاريخًا، بات ضرورةً. نعم، ثمّة ضرورةٌ قصوى لمشروعٍ ثقافيّ للقضيّة الفلسطينيّة، تكون مهمّةُ مؤسّساته وأدواتِ عمله الارتقاءَ بالشخصيّة الفلسطينيّة وترسيخَ حضور الشعب الفلسطينيّ الذي يتهدّده مشروعُ الإلغاء الصهيونيّ.

مع الأسف، يَلحظ متابعُ الشأن الثقافيّ المتعلّق بالقضيّة، والمتعلّق بإبداعات الشعب الفلسطينيّ، وجودَ أزمةٍ خانقةٍ على المستويين. فلناحية القضيّة، وما يُطرح في سبيلها من حلول، نجد شطحاتِ الفكر التجريبيّ الانتقائيّ مستشريةً في الخطابات المتعدّدة والمختلفة. أما على مستوى الإبداع والأدب والفنون، فعلى الرغم من وجود مئات المؤسّسات الثقافيّة (ومنها ما يمكن تفهّمُ ضرورته في ظلّ أوضاع الشعب الفلسطينيّ) فإنّ الغالب هو تفتيتُ للطاقات وفق حاجات السياسات الضيّقة التي تعتمدها المرجعيّاتُ السياسيّةُ الفلسطينيّة.

الأهمّ من ذلك أنّ الوعي الثقافيّ العامّ، الذي ضخّته القوى السياسيّةُ منذ الستينيّات (زمن انطلاق الكفاح المسلّح) وحتى اليوم (زمن التفكّك والضيق والتهافت)، لم يكن وعيًا يؤمن بالتنوّع والديمقراطيّة وتعدّد مصادر الإبداع وخصوصيّة المبدعين. فقد كانت أداةُ قياس الإبداع هي قربَه من/ أو بعدَه عن/ الفكرة السياسيّة والهدف السياسيّ، وبشكلٍ مباشرٍ وفجٍّ وفظٍّ أحيانًا. نذْكر على سبيل المثال ما واجهه أدبُ الروائيّ إميل حبيبي، مرّةً بسبب ما جاء في نصّ روايته **المتشائل ـ لكع بن لكع**، وأخرى لأنّ رؤية الرجل السياسيّة لا تتطابق مع خطّ السياسة الفلسطينيّة (الفصائل المسلّحة ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة): فقد شرعتْ أجهزةُ «الثقافة» بحملاتٍ عليه، ليس ميدانَها فكرُه السياسيُّ بقدْر ما أسقطت السياسةَ على أدبه ـ فوُصف هذا الأخيرُ بالأدب المعادي للقضيّة، واللاثوريّ، واللاوطنيّ... علمًا أنّ آيات التمجيد أُسبغتْ على أدبه بعد وفاته، من دون أن يقدّم الاعتذارُ إلى الشعب وإلى روح المبدع.

أما جبرا إبراهيم جبرا، المثقف والمبدع العملاق والمتنوّع، فقد اعتبر بعضُ «النقّاد» أنّ رواياته «بورجوازيّة» بعيدةٌ عن قضيّة الوطن والثورة، وأنّ شخصيّاتها ليست من «أبناء المخيّمات» أو المقاتلين الأبطال. وهم توقّفوا في روايته العظيمة، **البحث عن وليد مسعود**، عند العلاقات الداخليّة بين الشخصيّات ومحمولها الثقافيّ الغربيّ، لكنهم أغفلوا أنّ غيابه وغموضَ مصيره يعبّران عن استشرافٍ مبكّرٍ لمسار الحركة الفلسطينيّة ومصيرها: فهي أشبهُ ما تكون اليوم بوليد مسعود، الغائبِ المفقود، لكنّه المنشود أيضًا، إذ إنّ أصدقاءه في خاتمة الرواية يحملون الملفّاتِ والأوراقَ والمعلوماتِ ليتابعوا البحثَ عنه بعزيمةٍ وإصرار.

ولمحمود درويش حكايتُه هو الآخر. فقد رفض القالبَ الشعريَّ الذي نشأ عليه في البدايات، وراح يطوّر أدواتِه ولغتَه وصورَه وخيالاته، وانتقل إلى نموذج جديد ثبت أنّه الأرقى فنيّاً. هنا علت الصرخاتُ: أين درويشُ «سجِّلْ أنا عربي» و«عصافير الجليل»؟ وراح كلُّ من يقف ضدّ أوسلو (وعن حقٍّ بالتأكيد) يسخّف شعرَ

درويش لأنه صاغ «بيانَ الاستقلال» مع إدوارد سعيد وعمل إلى جانب ياسر عرفات لفترة، وكتب «عابرون في كلام عابر.» هم لم ينتقدوا شعرَه فنيّاً، إذنْ، بل نهشوه شاعرًا... لأسبابٍ سياسيّةٍ محض.

ونأتي إلى الروائيّة سحر خليفة. فهي حُوربتْ مرّتين، لسببين، في روايتيها **لم نعد جواري لكم ومذكّرات امرأة غير واقعيّة**: أ) لأنهما تنطويان على فكرة تمرّد المرأة، ب) لأنهما (كما زُعم) تقدّمان أولويّة تحرّر المرأة على تحرير الوطن. وفي روايتها **باب الساحة** اتُّهمتْ خليفة بأنّها تنذر بالشؤم على مصير الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ ـ ١٩٩٣) بسبب نقد الرواية لسلوك القيادات ولبعض المظاهر الاجتماعيّة والأخلاقيّة التي يعيشها المجتمعُ الفلسطينيّ.

أخيرًا وليس آخرًا، حادثة نشر الأديبة غادة السمّان لرسائل الأديب الفلسطينيّ غسّان كنفاني. فقد انبرى العددُ الأكبرُ من الكتّاب لاتهام غادة بأنها تشوّه رمزًا مناضلاً، ولم يهتمّوا كثيرًا بصدق الرسائل أو بمعانيها الأدبيّة. وكانت حجّتُهم أنّ الكشف عن تلك الرسائل لا يليق بالشهيد، فنصّبوا بذلك أنفسَهم أوصياءَ على الأموات والأحياء

وتطول القائمة التي تؤشّر مفرداتُها إلى التخلّف والاستبداد فباسم «القضيّة» تُقمع حريّة المبدعين وتصادَر حريّةُ الإبداع. وهو ما يدلّ على أنّ المشروع الثقافيّ الفكريّ الشامل غائبٌ عن حياة الفلسطينيين العامّة، تمامًا كحال المشروع الثقافيّ الفكريّ المتعلّق بالقضيّة في حيّزها التاريخيّ والنضاليّ

نعود إلى المستوى الأول، أي «المشروع الثقافيّ للقضيّة الفلسطينيّة،» الذي نعتقد أنه الأساس، وبتوفّره تتّسع آفاقُ التقدّم على المستويين: مستوى الثقافة كإبداعٍ وفنٍّ يرسّخان الصورةَ الحضاريّة للشخصيّة الفلسطينيّة الوطنيّة والإنسانيّة، والمستوى الفكريّ النظريّ الذي يؤسّس لإدارةٍ ناضجةٍ ومناسبةٍ لقيادة العمليّة الكبرى، ألا وهي إنجازُ الحلّ المناسب للقضيّة الفلسطينيّة. ونبدأ من سؤال ما هي طبيعتها؟ وما هو مضمونها؟

في الثقافة السياسيّة الفلسطينيّة تتراوح رؤيةُ القضيّة لدى القيادات الفلسطينيّة، وأكثر المرجعيّات العربيّة، في مساحاتٍ عدّة: تارةً كقضيّة جغرافيّة (صراع على الأرض)، وتارةً كقضيّة شعبٍ مشرّد يجب أن يتوفّر له «حقُّ العودة،» وتارةً ثالثةً كقضيّة مقدّسات تقع في ربوع فلسطين وتشكّل تلك الثقافةُ الخلفيّةَ الفكريّةَ للطروحات السياسيّة الفلسطينيّة والعربيّة والإسلاميّة من «الدولة الفلسطينيّة على أراضي ١٩٦٧،» إلى «الدولة الثنائيّة القوميّة،» فإلى «أرض فلسطين وقف إسلاميّ» أمّا شعار «الدولة الديمقراطيّة العلمانيّة الواحدة في فلسطين التاريخيّة» فيستند إلى مرجعيّةٍ فكريّةٍ مختلفة (وهو على أيّة حالٍ وُلد في عشرينيّات القرن الماضي على يد الشيوعيين اليهود).

تتجلّى المشكلة في الثقافة المذكورة، وفي ما ينبثق عنها من حلول، في غياب الوعي المعرفيّ العلميّ والموضوعيّ بطبيعة الصهيونيّة وبرنامجها ـ ما تحقّق منه وما لم يتحقّق بعد. ففي السياسات الحديثة، وبصرف النظر عن القضيّة المطروحة، هناك ثلاثةُ مقوّمات للوعي السياسيّ الحديث: **أوّلُها** أن يكون وعيًا تاريخيّاً، أيْ إنّه لا يبدأ من لحظةٍ في سيرورة التطوّر بل يعود إلى تاريخ تراكم المعطيات وتجلّياتها والعلاقات التاريخيّة بين الأطراف التي تنخرط فيها. في هذه المساحة من السياسات الحديثة التي لها وعيٌ بالتاريخ، تكون الفكرةُ العقلانيّة، ويكون التطورُ الفلسفيّ والنظريّ لاجتراح مقولة «العلمانيّة» التي تؤسّس، إلى جانب شروطٍ أخرى، للديمقراطيّة في الحياة والسياسة، وتستوعب التطوّرات في أوجه الحياة كافةً.

وثانيها أن يكون وعيًا كونيّاً. فما يجري في أيّ رقعةٍ في العالم عمومًا، وفي أزمنته الحديثة خصوصًا، مترابط في تكامله بين مختلف الحضارات والثقافات. وما أنتجه الغرب فلسفيّاً وفكريّاً لم يكن مصدرُه دائرة مغلقة واحدة، قوميّة أو إثنيّة أو دينيّة، بل نتاجُ تجربة البشريّة عبر التاريخ بحضاراتها المتعدّدة. وإنّ انبثاقه في مجتمعات الغرب لا يُسقط عنه كونيّته، ولا يبرّر الازورارَ عنه؛ كما أنّ أخذه في معزلٍ عن خصائص واقع هذا المجتمع أو ذاك إنما هو تشويهٌ لكونيّته وتخلّفٌ عن المساهمة في إثرائه. علاوةً على ذلك، فإنّ الوعي الكونيّ في المجال السياسيّ يشكّل أساسًا لا بدّ منه لفهم السياسات الدوليّة وتحديد سبل التعاطي معها، من دون أوهام بثباتها على دعم قضايانا، أو تذمّراتٍ انفعاليّةٍ من تبدّلاتٍ تفرضها تحوّلاتٌ في مصالح هذه الدولة أو تلك. إنّ رؤية العالم في حراكه هي التي تخفّف من آثار التغيّرات المفاجئة على مصالحنا. والأفضل أن يتمّ الاستشرافُ المبكّر للاحتمالات، واستقبالُ تلك التغيّرات باستيعابها، واستبعادُ «المفاجآت» اعتمادًا على توقّعات مسبّقة.

وثالثها أن يكون وعيًا مطابقًا للواقع، بعيدًا عن التخيّلات والأمنيات والرغبات والنزعة الإراديّة. فالشعارات، وطرقُ النضال، وأشكالُ التنظيم، والمساوماتُ العقلانيّة، والتراجعُ والتقدّمُ في الفعل السياسيّ الثوريّ، وسوى ذلك، كلُّها مسائلُ لا يمكن استنباطُها من بطون الكتب أو من الرؤوس فقط

لقد بلورت الصهيونيّة منظورًا للتاريخ وفق الرواية التوراتيّة، فأنتجتْ وعيًا زائفًا لما يُعرف بـ «المسألة اليهوديّة» ثم كرّستْ جهودَها لخدمة أهدافها السياسيّة المعدّة مسبّقًا، مستفيدةً من الفكر القوميّ الأوروبيّ، كما الفكر الاشتراكيّ، لتصوغ خلطةً عجيبةً من الأفكار وذهبتْ للتعويض عن تهافت تلك الخلطة بالعمل الدؤوب والمنظّم، في سعيها إلى تجسيد برنامجها، الذي لم يكن ليُكتب له النجاحُ من دون الحاضنة الاستعماريّة الأوروبيّة والأميركيّة. ولقد شكّل اطّلاعُ قادتها على استراتيجيّات الدول الكبرى، ومعرفتهم بالمحطّات التاريخيّة الحاسمة في التاريخ الاستعماريّ إزاء ما يُعرف بـ «المسألة

حوربتْ سحر خليفة لأنّ روايتيْن لها (كما زُعِمَ) تقدِّمان أولويّة تحرّر المرأة على تحرّر الوطن!

الشرقيّة» ركيزةً لهم في توضيب العامل الذاتيّ، الذي أهّلهم للسير في تجسيد مشروعهم أولاً بأوّل.

أما النخب العربيّة، ومنها الفلسطينيّة بالطبع، فلم تكن قادرةً على إنتاج وعي معرفيّ بطبيعة الصهيونيّة وأهدافها الإستراتيجيّة. فمنها من صدّق أنّ هدف الصهيونيّة هو محضُ إنجاز حلٍّ للمسألة اليهوديّة، فشرع يعارض ذلك استنادًا إلى وعي دينيّ محافظ، لا يتوفّر على أدوات فكريّة وتحليليّة حديثة، ويعتمد الحماسةَ القوميّة الشعاراتيّة التعبويّة الانفعاليّة، مع أنه يواجه مشروعًا كبيرًا وخطيرًا في عناوينه وغاياته وطبيعة قواه وتحالفاتها وأدوات عملها وهذا ما يفسّر غيابَ الموقف الجذريّ من الدول الاستعماريّة، الحاضن الأوّل للصهيونيّة (من المعروف أنّ الفكرة الصهيونيّة أوروبيّةُ المنشأ قبل أن تكون نابعةً من داخل التجمّعات اليهوديّة في العالم). وترتّب على هذا الموقف وهمُ استنجاد بعض العرب بالغرب، منذ وعد بلفور، وبعد الحرب الأولى والثانية، وإلى اليوم. هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى، أنتج الوعيُ العربيّ القاصر سبلَ مواجهةٍ تتناسب معه، وأدواتِ نضالٍ هشّةً وارتجاليّة.

منذ بداية النضال الوطنيّ الحديث (الكفاح المسلّح) اتّضحتْ جملةٌ من المشاكل المعقّدة في فهم القيادات الفلسطينيّة للواقع ولأبعاد القضيّة الفلسطينيّة. أ) فعلى الصعيد الفلسطينيّ **الذاتيّ**، برز تخبّطٌ فكريّ في التعامل مع الظروف المختلفة لقطاعات الشعب الفلسطينيّ فعلى سبيل المثال طُرحتْ قبل العام ٦٧ مسألةُ «الداخل والخارج» لتضعهما في تعارضٍ، وذلك جرّاء الثقافة القائمة على الرغبة في التماثل لا التكامل. ولطالما هوجمتْ جماهيرُ الشعب الفلسطينيّ داخل أراضي ١٩٤٨، واتُّهمتْ بالتخاذل والتقصير والقبول بالأمر الواقع وبعد هزيمة ١٩٦٧، توجّه النقدُ، وإنْ بحدودٍ أقلّ، إلى أبناء الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة لاضطرارهم إلى تحصيل عيشهم بالعمل في الصناعة والزراعة الإسرائيليّتين، بل ذهب البعض إلى اتّهامهم بخدمة العدو ـ وهو ما تناولتْه سحر خليفة في روايتيها، **الصبّار** و**عبّاد الشمس**، بالنقد ب) وعلى الصعيد **القوميّ**، كان الخللُ في وعي العلاقة بين الوطنيّ الفلسطينيّ والبعد القوميّ مزدوجَ المصدر. فالقوى العربيّة قدّست الكفاحَ المسلّح ولم تتعاملْ معه نقديًّا؛ والقياداتُ الفلسطينيّة حصرت البعدَ القوميّ بمساندة ذلك الكفاح ج) **دوليًّا**، كان التخبّط سمةً ملازمةً للخطاب السياسيّ العربيّ والفلسطينيّ في التعاطي مع مواقف الدول وسياساتها. فكان الاتّحاد السوفييتيّ متّهمًا بخدمة إسرائيل، ثم أصبحَ المظلّةَ السياسيّةَ للبرنامج الفلسطينيّ التسوويّ. كذلك تحوّلت «الإمبرياليّة،» والأميركيّةُ خصوصًا، من عدوّ لا يمكن الانتصارُ على إسرائيل إلاّ بهزيمته إلى طرفٍ يُكتسب محايد يمكن الاعتمادُ عليه في الضغط على إسرائيل. وهكذا! هنا يبدو أثرُ غياب المشروع الثقافيّ الفكريّ الإستراتيجيّ في مسيرة الكفاح الفلسطينيّ ضدّ إسرائيل والصهيونيّة.

ومع كلّ تطور في الصراع مع حلقات المشروع الصهيونيّ، سواءٌ ما تعلّق منها ببناء قاعدته «دولة» إسرائيل أو ببرامج الدول الاستعماريّة الكبرى الموجّهة نحو البلدان العربيّة وشعوب المنطقة، تبدّت سياساتُ الارتجال والانفعال العربيّة، المطروحةُ بخطاباتٍ ناريّةٍ مفككةِ المضمون، أو بتقمّصٍ لـ «الواقعيّة» تغطيةً للترهّل والعجز وتوطئةً لمسايرةِ ما يطرحه البرنامجُ المعادي. ولأنّ الحديث هنا هو عن القضيّة الفلسطينيّة، فإنّنا نشير إلى تذبذبات البرامج العربيّة والفلسطينيّة إزاء المشاريع الصهيونيّة والأميركيّة التي قُدِّمتْ تحت عنوان هائل وبرّاق «تحقيق السلام» ونتيجةً للوعي المفكّك والانتقائيّ، اللصيقِ بمناخات التقهقر والهزائم، راحت الثقافة السياسيّة العربيّة والفلسطينيّة تبحث عن حجج وذرائع لأسلوب تعاملها مع البرامج المطروحة وكلّما توغلتْ في أسلوبها هذا، راحت تشوّه الوعيَ بطبيعة الصراع، وعلى الجانبين لدى الطرف الذي قبل بها، ولدى الطرف الذي رفضها الأول صاغ فكرته على «المرحليّة،» والثاني رفضها بخطابيّة انفعاليّة مفعمة بالشعارات الثوريّة والعاطفيّة. وبين هذا وذاك، غاب الفهمُ العلميّ الموضوعيّ لمضمون القضيّة، ذلك لأنّ غياب فهم طبيعة إسرائيل ومشروع الصهيونيّة وعلاقتهما بالمشروع الاستعماريّ الأمّ لا يؤسّس

لمعرفة ناجزة للتناقض العربيّ ـ الإسرائيليّ، ومن ثمّ لا يوفّر استراتيجيّةً تقدّم حلاً له، ويعجز عن بناء الأدوات الضروريّة لمثل هذا الحلّ.

لقد اكتفى النضالُ الفلسطينيّ، منذ انطلاقة الكفاح المسلّح، بتحديد الهدف (التحرير)، ومارس الأسلوب المسلّح محاولاً محاكاةَ ثورات العالم التحرريّة الوطنيّة في الستينيّات. حتى إنّ فكرة «أنّ السياسة تنبع من فوّهة البندقيّة،» وهي تعود إلى ماوتسي تونغ، أُخذتْ عندنا بمعنى إهمال الفكر والوعي السياسيّ. وعندما تطوّرت العمليّاتُ المسلّحة، وواجهت المقاومة مشكلاتٍ معقّدة منذ العام ١٩٧٠، وتأثّر بعضُ فصائلها وكادراتها بالأفكار المتعدّدة، فإنّ هذه الأخيرة كانت أفكارًا من بطون الكتب، أو جاءت محاكاةً لتجارب بلدان أخرى (فيتنام، كوبا، الصين). والغائب الأكبر هو الوعي بالقضيّة وتداخلاتها، قوميّاً وإقليميّاً وعالميّاً.

وإذا أردنا أن نقارب مقترحًا للمشروع الثقافيّ الفكريّ للقضيّة، بعد تجربةٍ مضى عليها قرنٌ وثلاثة عقود (١٨٨٢ ـ ٢٠١١)، فقد يمكن تحديدُه بالنقط الآتية:

ـ أن يدحض الفكرُ العربيّ ادّعاءَ الصهيونيّة أنّ مشروعَها في إقامة «دولة قوميّة للشعب اليهوديّ» هو الحلّ للمسألة اليهوديّة. ويتمّ ذلك الدحض فكريّاً، وبما أكّدته تجربةُ الصراع من تحويل الإنسان اليهوديّ طعامًا للمدافع.

ـ أن يقيم الفكرُ العربيُّ الحدودَ الدقيقةَ بين أبعاد القضيّة الفلسطينيّة الثلاثة. العربيّ، والدوليّ، والفلسطينيّ. ذلك لأنّ ما تطرحه اليوم غالبيّةُ الخطابات العربيّة من أنّ «القضيّة الفلسطينيّة جوهرُ الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ» قلبٌ للأمور رأسًا على عقب؛ ونادرًا ما نقرأ، خصوصًا في العقود الثلاثة الأخيرة، مَنْ يطرح أنّ «جوهر القضيّة الفلسطينيّة هو الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ.» والأكيد أنّ ما يترتّب على هذه الأطروحة وتلك ليس أمرًا لغويّاً أو تفصيليّاً بالجزئيّات؛ فالبرامج والتكتيكات وسُبل النضال وأدواتُه وأهدافُ العرب والفلسطينيين في هذا الصراع تختلف تمامًا بناءً على كلٍّ من الفكرتين.

ـ أن ينطلق الفكرُ العربيُّ المتعلّق بالقضيّة من رؤيةٍ للعالم تحدّد مواقعَ أطرافه من الصراع، ولا تتعامل مع تلك المواقف بالندب والعويل أو بالتمجيد والتعظيم. فكلّ دولة مهيّأةٌ للتحوّل والتبدّل، ويُفترض بخطابنا إلى العالم أن يأخذ في الاعتبار ما يجري بين الدول وداخلها كي تستطيع القياداتُ العربيّة والفلسطينيّة التعاملَ مع البعد العالميّ للصراع مع المشروع الصهيونيّ بواقعيّةٍ وحزمٍ ودقّة. وهنا لا ننسى أنّ الصهيونيّة نجحتْ، منذ تأسيسها، في جعل «الفكر الزائف» الذي انطلقتْ منه يسود في وعي **المجتمعات** الكبرى، لا الحكومات فحسب. هذا من دون أن نهمل طبعًا تبنّي تلك الحكومات للنظريّة الصهيونيّة، ولثقافتها المغلقة والعنصريّة، خدمةً لمصالحها وتحقيقًا لأطماعها في المنطقة.

ـ يشكّل الحضورُ الثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ لحركة الشعب الفلسطينيّ أحدَ أهمّ شروط حسم التناقض مع الصهيونيّة و«دولة» إسرائيل. واختزال هذا الحضور بحلٍّ جزئيّ للفلسطينيين، على جزء من الأرض، وهمٌ لا يقدّم حلاً حقيقيّاً حتى لجزءٍ من الشعب الفلسطينيّ؛ كما أنه يجعل البعدين العربيّ ـ الإقليميّ والدوليّ مستهلكيْن في اتجاهات عملٍ سرعان ما يبدو تهافتُها واختلالُها. أليست تجربة «البحث عن السلام» من خلال برامج التسوية، والتي تبلورتْ في عمليّة أوسلو، دلالةً لا بدّ أن تؤخذ في الاعتبار وتتطلّب المراجعة؟

إنّ الأبعاد الكبرى للقضيّة الفلسطينيّة تتطلّب ما يعادلها في المشروع الفكريّ الثقافيّ، من أجل توفير إجابات حقيقيّة لكلّ الأسئلة التي أثارها تاريخُ الصراع الطويل. وهذا المشروع ليس رهنًا بالفلسطينيين: أنهم بالتأكيد جزء منه، وقد يكون الأكبر والأهمّ، لكنّ طبيعة القضيّة تجعل من مشروع حلّها متجاوزًا للانتماء القطْريّ المحدود. وعليه فإنّ المشروع ثقافيّ فكريّ **لفلسطين**، لا مشروع **فلسطينيّ**.

ومن ناحية المشروع الثقافيّ للإنسان الفلسطينيّ ولمجتمعه ووجوده الحضاريّ التاريخيّ، ينبغي أن يعاد النظرُ في تناول هذا الاستحقاق المهمّ. فإبداع الشعب وإطلاقُ إمكاناته الروحيّة والمعنويّة لا يعودان محتجزيْن لإراداتٍ ضيّقةٍ تريد من المثقف التطبيلَ والتزميرَ لفكرة أو موقف، ولا أن يُنتج المبدعون أعمالَهم كآلاتٍ تحرّكها السياسةُ المسيطرةُ لتأكيد صحّة مواقف أصحابها. إنّ تطوّر الثقافة والفنّ والإبداع لا يستقيم مع التأطير المسبّق والخضوع لأهداف المشتغلين بالسياسة.

الصلة وطيدة وعميقة بين المشروع الفكريّ للقضيّة الفلسطينيّة وبين المشروع الثقافيّ الفلسطينيّ. غير أنّ المشروع الأول هو الأساس الذي يفتح البوّابات الرحبة للخلق والإبداع الأدبيّ والفنيّ، ولتجديد الفولكلور وتطويره، ولحماية التراث الإنسانيّ لأصحاب الأرض الحقيقيين.

دمشق

مصطفى الولي

كاتب من فلسطين من إصداراته: **غسان كنفاني ـ دراسة نقديّة في جوانب من أدبه ورسائله؛ الغائب المنشود (الفلسطينيّ في روايات جبرا إبراهيم جبرا)؛ أمن إسرائيل (الجوهر والأبعاد)؛ خيوط السراب (مشاريع الدولة الفلسطينيّة من الكتاب الأبيض ١٩٣٩ حتى إعلان بوش الابن ٢٠٠١).**